السيميائيات الاجتماعية للوسائط الإعلامية (ترجمة)

Invasive Life Forms: Media Belief Regimes and Globalization

نصر الدين بن غنيسة [1]

[1] جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مخبر السيميائيات والممارسات الخطابية

n.benghenissa@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام:2023/12/24 تاريخ القبول: 2023/12/31 تاريخ النشر: 2024/05/31

ملخص

تهتم الدراسة المترجمة بدراسة الموقع الخاص الذي تحتله الوسائط الإعلامية في تراتبية الأشكال السيميائية ومنظومتها التي تشكّل المجتمعات والثقافات، سعيا إلى فهم طبيعة هذه الوسائط ومدى تأثيرها في تغيير هذه الأشكال. وإقرارا بالطابع الحيوي لمنظومات الاعتقاد، تسلط الدراسة الضوء على طبيعة المواجهات المتوقعة بين منظومات الاعتقاد التي تحملها الوسائط الإعلامية بعامة والوسائط المعولمة بخاصة وبين المنظومات المثبتة في الهيئات الرمزية لكل فضاء حيوي سيميائي. وبموازاة ذلك، تسعى الدراسة إلى ضبط أنماط أشكال الحياة التي توطّنها الوسائط الإعلامية المعاصرة في مجتمعاتنا.

كلمات مفتاحية: محايثة؛ اعتقاد؛ الإعلام؛ العولمة؛ أخلاقيات.

Abstract

This study translated from Arabic examines with the greatest attention the particular position of the media in the hierarchy and the system of semiotic forms that constitute societies and cultures, in an attempt to understand how and to what extent their influence can transform them. Then, having taken note of the decisive character of belief regimes, the study highlights the nature of the foreseeable confrontations between, on the one hand, the belief regimes that are carried by the media in general, and in particular the globalized media, and, on the other hand, those who are already understood and installed in the symbolic institutions of each semiosphere. In doing so, and at the same time, this study ends up understanding what types of life forms contemporary media install in our societies.

Keywords: Immanence; belief ; media; globalization; Ethics

المؤلف المرسل: نصرالدين بن غنيسة ، **الإيميل:** n.benghenissa@univ-biskra.dz

1. مقدمة: الفضاء الحيوي السيميائي ووسائل الإعلام

تحتل الوسائط الإعلامية مكانة خاصة جدا في الثقافة المعاصرة، الأمر الذي يفرض مقاربة متعددة المستويات: فهي تتداخل، حاليا، مع كل الممارسات العامة والخاصة، وتسهم في عولمة التبادل و في تنظيم حياتنا اليومية والحميمة؛ كما تؤثر على كل أنماط الخطابات و تسهم في بناء هندسة سيميائية جديدة لمجتمعاتنا، فهي تغير بشكل جوهري ما هو أساس في الفضاءات السيميائية، وما يعتمل بينها من حوار. تعدّ الوسائط الإعلامية مكونا رئيسا لأشكال وجودنا الاجتماعي، وهو ما يفسر تأثير خصائصها السيميائية على أشكال الحياة من حيث إسهامها فيها، سيما عبر منظومات الاعتقاد.

يقوم المفهوم السيميائي الذي طورته مدرسة تارتو- موسكو، ولقد أشرنا إلى ذلك سالفا، على فرضية عامة موجزة في مفهوم الفضاء الحيوي السيميائي، ومؤداه أن كل فضاء حيوي سيميائي يتميز بتفاعلاته مع الفضاءات الأخرى، عبر "حوار" وتبادلات لأشكال سيميائية ("لغات") نابعة من حدود رمزية بين هذه الفضاءات، أرستها المجتمعات: ضمن نطاق الحدود يتحرك مجال "نحن"، وخارج هذا النطاق، ينتشر مجال "هم"؛ وعلى العموم، إن وجود الفضاء الحيوي السيميائي يقتضي تحول حدود التبادل بين الهوية والغيرية، إلى موضع للتبادلات الثقافية.

بطريقة ما، على الصعيد الجماعي، يعيد الفضاء الحيوي السيميائي إنتاج ما وصفته، على الصعيد الفردي، كل من الظاهراتية والسيميائية بعدّه البنية الأساسية لكل تجربة حسية؛ تجربة التبادلات بين الأنا (عالم المشاعر والانطباعات الداخلية)، و الذات (الحدود الرمزية للجسد الخاص) ، و الآخر (العالم الحسي، بما فيه الأجساد الأخرى).من وجهة نظر سيميائية، الانتقال من الصعيد الفردي إلى الصعيد الجماعي هو أيضا الانتقال من الحيز الظاهراتي و الحسي إلى الحيز الاجتماعي والثقافي.

إن التحاكي بين العالم الأصغر البشري و العالم الأكبر الكوني بما يعنيه من تحولات بين العالمين لا يضمن بالضرورة تعريفا ثابتا لطريقة عمل هذا التحاكي، بينما في وسعنا ملاحظة أن الفضاءات الحيوية السيميائية، على صعيد المجتمعات، مدعاة لأن تشتغل وفق المبدأ نفسه الذي يحكم مكوناتها المباشرة المتمثلة في أشكال الحياة: إذ لا يمكن استيعابها إلا من خلال حركية تحولاتها وتفاعلاتها مع فضاءات حيوية سيميائية أخرى.

ينتظم الفضاء الحيوي السيميائي حول المركز (أي المنطقة التي تتوفر على أكبر قدر من التناسق، والتي تحقق للهوية الثقافية حضورها الأكثر تجذرا)، وقد طوّقته مناطق محيطة، بحيث كلما ابتعدنا عن هذا المركز ، يبدأ هذا التناسق و هذه الهوية بالتقلص شيئا فشيئا. وتعدّ هذه المناطق المحيطة مجالا

للتبادلات مع ثقافة الآخر، ومجالا للاختلاف والتباين حيث تتجلى أشكال سيميائية مؤقتة قد يجري إدماجها و تكييفها في ثقافة "نحن ."

فالفرق بين الأشكال السيميائية المركزية و الأخرى المحيطة ترتبط جوهريا بالطريقة التي يتبنى بها الـ"نحن" هذه الأشكال، وبالكثافة التي يتعامل بها الـ"نحن" مع الأشكال ذاتها. وتُقدَّر هذه الكثافة بمدى قوة الالتزام [بمنظومة قيم المركز]، و الثبات على المعتقدات المشتركة عبر الزمن، وقد تدعّمت بمجموعة من الآليات الاجتماعية الموجهة لإضفاء الشرعية على هذه القوة وعلى هذه المعتقدات وعلى هذا الثبات عبر الزمن .

في المنطقة المركزية، تنتشر، على الخصوص، العادات والمعايير والأنماط والقواعد الجمالية التي تفرض نفسها، بينما يهيمن على المنطقة المحيطة عمليات الإبداع والترجمة والاستعارة والتهجين التي تضفي ألقا وقيمة خاصة جدا على الإسهامات الأجنبية، بسبب غرابتها وجدّتها. فـ"المعتقدات" المحيطة هي إذن من طبيعة أخرى غير تلك التي يختص بها مركز الفضاء الحيوي السيميائي، لأنها غير مسنودة لا من طرف العادات و لا الإجماع، ولا الهئيات المؤسسية، بل إنها تستمد قوتها من التناقض والجدّة والندرة والغيرية.

وبهذا الصدد، تتموقع الوسائط الإعلامية، بكل وضوح، في المناطق المحيطة، وذلك بحكم طبيعتها. فالوسيط، مهما كان المفهوم الذي يتلبسه هذا المصطلح، هو دوما تلك الهيئة التي تقيم روابط بين مجالين منفصلين (تأثيليا، هي "حيّز وسيط")، وبهذا المعنى، تعدّ الوسائط الإعلامية المعاصرة معبرا بين مجالات ثقافية – اجتماعية؛ ولئن كان دور الوسيط غالبا ما يختزل في وظيفة التواصل، (الوسائط الإعلامية هي "حوامل تواصلية")، إلا أنه من منظور الفضاء الحيوي السيميائي، تضطلع الوسائط الإعلامية، بوصفها عوامل وساطة، بدور حاسم في المناطق المحيطة، يتمثل في العبور والنقل والترجمة و تحويل الأشكال السيميائية.

فضلا عن ذلك، وبسبب من التنظيم الاقتصادي والتجاري الذي طال قطاع الوسائط الإعلامية، فإن عولمة الإنتاج الإعلامي قد عززت هذا الدور و رسخت الحضور القوي للوسائط الإعلامية في المناطق المحيطة حيث تجري عمليات تبادل وتحول لما تنتجه الفضاءات الثقافية. وبناء على ذلك، فإن الوسائط الإعلامية تذهب إلى أبعد من مجرد الحوار الثنائي بين مجال الـ"نحن" و جميع مجالات الـ"هم"، كما تصوره رائد مدرسة تارتو، يوري لوتمان **Youri Lotman:** إذ الوسائط الإعلامية المعولمة تشمل، في آن معا، مجال الـ"نحن" في تفاعل عالمي ومتعدد الأطراف، مع المجالات الأخرى، بما فيها المجالات التي تبدو، لأسباب جغرافية وتاريخية، غير قادرة على إقامة علاقات ثنائية مع مجال الـ"نحن ."

لقد جعلت الوسائط الإعلامية المركز الهوياتي لـ"نحن" عرضة لحملة حقيقية من المعلومات والدلالات و الأنماط و أنواع الحصص التليفزيونية القادمة من كل أنحاء العالم، ناشرة عبر موجات متعاقبة

ودورية، إسهامات إضافية و أشكالا سيميائية جديدة. بالطبع، مثل هذا الهجوم يستهدف المنطقة المركزية التي تحمل الهوية الخاصة بكل فضاء حيوي سيميائي. وبما أن المنطقة المركزية هي أيضا منطقة المعتقدات الملقاة بقوة على عاتق الجماعة، فإن مسألة منظومات الاعتقاد الإعلامية تغدو أساسية: إن ترويج هذه الأخيرة داخل أي فضاء حيوي سيميائي يجعلها في مواجهة مع المنظومات السائدة قبلا، والقائمة على تقاليد أو هيئات خاصة في وسعها أن تقاومها و تصدها، ولكن أيضا بإمكانها أن تستقبلها وتحوّلها وتدمجها، مع ما يحمله كل ذلك من خطر زعزعة هوية الـ"نحن ."

بناء عليه، سنولي عناية كبيرة لدراسة الموقع الخاص الذي تحتله الوسائط الإعلامية في تراتبية الأشكال السيميائية ومنظومتها التي تشكّل المجتمعات والثقافات، محاولين بذلك فهم طبيعة ومدى تأثيرها في تغيير هذه الأشكال. وإقرارا منا بالطابع الحيوي لمنظومات الاعتقاد، سنسلط الضوء على طبيعة المواجهات المتوقعة بين منظومات الاعتقاد التي تحملها الوسائط الإعلامية بعامة والوسائط المعولمة بخاصة وبين المنظومات المثبتة في الهيئات الرمزية لكل فضاء حيوي سيميائي. وبموازاة ذلك، سنسعى إلى ضبط أنماط أشكال الحياة التي توطّنها الوسائط الإعلامية المعاصرة في مجتمعاتنا.

2. الوسائط الإعلامية والأشكال السيميائية ومستوياتها المحايثة

مثلما تم التذكير به في هذا المقام، نقترح، على سبيل الافتراض، التمييز بين ستة مستويات مختلفة للمحايثة:العلامات، والنصوص، والموضوعات، والممارسات، والاستراتيجيات، وأخيرا أشكال الحياة، تتعالق هذه المستويات في سلسلة تخضع لمعيار هرمي وتتداخل فيما بينها في ظل إجراءات إدماجية.

تعدّ العلامات الوحدات الأساسية للدلالة (لفظة، وجه، علامة إشهارية)؛ بحيث تشكّل كل واحدة منها وحدة تضم، في الحد الأدنى، تعبيرا ومحتوى. في وسعنا أن نعرف هذا الحد الأدنى بما يوفره لنا من إمكانية عزل كل علامة على حدة و تفعيلها في عدد من السياقات المختلفة. وعليه، تعتبر كل نقطة تفعيل على موقع أنترنت (زر، مقطع ملون من جملة، أو مقطع تحته خط، الخ) علامة نموذجية، متكونة من تعبير أدنى مرتبط، تواضعيا، بفعل هو بدوره في حده الأدنى (النقر على الزر لفتح نافذة.(

تعّد النصوص مجموعات دالة مركبة، ذات طبيعة لسانية، وإيقونية (صور)، وإيمائية (لغة الإشارة)، الخ. وتتميز هذه النصوص بتسييجها (إذ يعدّ ذلك قاعدة أولية تؤسس لأي تحليل) الذي يتيح رصد الانسجام، والتكرار والتناقض، إجمالا، فهو يتيح الكشف عن أنماط التركيبات التي تضطلع بدلالة مجموع النص. أساسا، في وسع هذا التسييج النصي أن يمنح معنى خاصا لبداية ونهاية تشكل النص: على سبيل المثال، يمكننا أن نستنتج دلالة نص ما من الفارق الملاحظ بين الوضعية النهائية والوضعية الابتدائية .

فيما يتعلق بالصور، يكفي أن نعدّها نصوصا، و ليس مجرد اتحاد لعلامات إيقونية، حتى نقّر لها بالبعد التشكيلي الشامل كتركيبة بصرية منتظمة هي بحد ذاتها دالة في كليتها. إن تصميم الصفحة الأولى لأحد العناوين الصحفية هو ذو طبيعة نصية، أي هو في الآن ذاته تشكيلي، و جدولي، وطوبولوجي: فالتصميمات الشكلية، وأسلوب الطباعة، والألوان، وأشكال الملاحق، ومواقع الصور، كل ذلك يسهم في التعرف الفوري على عنوان الصحيفة، وأيضا في الترميز المسبق لمحتوى المقالات، وذلك بغرض توجيه وتعديل المسار البصري والقراءة .

بينما تعتبر الموضوعات أجساما – لعله من المناسب أن نعدّها كذلك- أي كيانات سيميائية بأبعاد ثلاثة تتميز ببنيتها المادية، و مورفولوجيتها الخارجية، وببعض من الخصائص الديناميكية التي توفر لها الـ"طاقة": والمتمثلة في حدها الأدنى في الوزن، و تتجاوزها إلى كل إمكانيات الحركة، سواء أكانت متوقعة أم لا، وذلك خلال تشكل أو صياغة تلك الكيانات .

ولكي يكون موضوع ما موضوعا دالا، وليس فقط "شيئا"، لابد أن تخضع بنيته المادية ومورفولوجيته وديناميكيته إلى تأويل وظيفي: فهي، إذن، محددات لوظيفته واستخداماته العملية. واستنادا إلى ذلك، الوسائط الإعلامية هي أيضا بالضرورة "موضوعات" مادية وافتراضية، في الغالب متطورة (الكتاب، وموقع الأنترنت، والتلفزيون، الخ)، بيد أنها جميعا مزودة بخصائص تقنية كفيلة بضمان الحوار والمقروئية والحركية والمصداقية وكذلك المرونة والتفاعل بين النصوص والعلامات التي تحملها.

وكما أن العلامات قابلة للدمج مباشرة في النصوص، فإن الأجسام- الموضوعات هي أيضا قابلة للدمج في الممارسات، وذلك بفضل وظيفتها. ولكن ينبغي أيضا أن تكون النصوص قابلة لأن تدمج في الموضوعات، وأن تكون هذه الأخيرة مهيئة لاستقبالها: من هذا المنظور، تتحول الموضوعات إلى حوامل للنصوص، تتولى تسجيلها و المحافظة عليها ماديا وإنفاذها.

إن مورفولوجيا الغلاف السطحي لهذه الموضوعات مهيأة لتتحول إلى حامل لتسجيل تلك النصوص. و تعدّ مواءمة غلاف الأجسام-الموضوعات لاستقبال هذه النصوص الأساس الذي تقوم عليه الكتابة المنتمية، هي بدورها، وبالمعنى الحرفي للكلمة، إلى عالم الوسائط الإعلامية. إن مثال الصفحة الأولى لصحيفة ما، كما أوردناه آنفا، يذهب في الاتجاه نفسه، إذ يشكّل التنظيم الجدولي والتشكيلي والطوبولوجي للصفحة المصفوفةَ الشكليةَ التي، بإسقاطها على الصفحة الحامل (الموضوع المادي)، تتيح استقبال تسجيل النصوص والصور، كما تتيح توجيه قراءتها.

فضلا عن ذلك، تعدّ الممارسات في حد ذاتها مسارات للفعل، يمكن تعريفها أساسا انطلاقا من محور الفعل أثناء تحققه، ومن شتى الأدوار التي يتطلبها هذا المحور حتى يتحقق الفعل: إن محادثة ما هي بمثابة ممارسة، موضوعها تبادل ملفوظات لسانية وإيمائية-حركية، والتي تتطلب، على الأقل، متخاطبيْن،

تتولد من حوارهما دلالات اجتماعية- تداولية، وأيضا نفسية-اجتماعية وإثنولوجية. أهم خاصية للممارسة تتمثل في كونها غير منغلقة: أي مفتوحة على طرفي السلسلة، لذا ينبغي لمسار الفعل أن يجد دلالته في تفاصيل تحولاته، وفي تكيّفه التركيبي .

بالطبع، في وسع أية ممارسة أن تكون لها بداية ونهاية، لكن هذه البداية وهذه النهاية لا تسهمان في الدلالة العملية لهذا المجموع. على سبيل المثال، فإن حصة تصفح على الأنترنت لها بالضرورة بداية ونهاية، ولكن نادرا ما يكون لهذه البادية والنهاية معنى. وفي حالة حضور المعنى، فإن الحصة ستكون موضوع حكي بوصفها تحريا سرديا، أي باعتبارها نصا يمتلك طاقة درامية خاصة .

في مستوى أعلى، تتضافر الممارسات وتتداخل لتشكل الاستراتيجيات التي تقدم، بشكل خاص، "أفقا" للقيم المهيمنة (والتي باسمها تنتظم هذه الممارسات وتترتب فيما بينها)، فضلا عن "نمط" استراتيجي، أي طريقة معينة قابلة لملاحظة و توصيف العلاقات بين الممارسات وضبطها فيما بينها. إذا افترضنا مثلا أن سير سهرة عائلية يخضع إلى استراتيجية مضمرة، إذن يتعين علينا ملاحظة كيف تنتظم و تترتب وتنضبط الممارسات المختلفة التي ينخرط فيها أعضاء العائلة. على سبيل المثال، إن التعرف على الممارسة السائدة (الوجبة، والمحادثة، والتلفزيون، الخ)، أي تلك التي تنسق وتضبط إيقاع بقية الممارسات، هو في الغالب المفتاح الذي يتيح فهم النمط الاستراتيجي للعائلة، من ثم فهم المكانة التي يحتلها استعمال الوسائط الإعلامية في هذا النمط.

ولذا فإن هناك بعدا استراتيجيا بديهيا في الوسائط الإعلامية، شريطة أن يأخذ مصمموها بعين الحسبان الوضعيات الملموسة التي تجري فيها الممارسات الاعتيادية. إذا فرضنا أن "المتفرج" العادي يشاهد التلفزيون وهو يتناول الطعام، أو يتبادل أطراف الحديث مع أقربائه، ربما وهو يذرع الغرف جيئة وذهابا، وكل ذلك وهو يغير القنوات بشكل غير متوقع، فإن على مصمم الحصة التلفزيونية، أو البرنامج وشبكة البرامج أن يستشرف تسيير هذه الممارسات المتزامنة والمتنافسة، حتى يضمن الحد الأدنى من متابعة جمهور المشاهدين.

وأخيرا، يكون في وسعنا الحديث عن شكل الحياة حين نتمكن من التعرف على أنماط استراتيجية متناسقة و متواترة، ومستقلة نسبيا عن الوضعيات التيمية، ومن القوة بما يمكّنها من التأثير على كل الممارسات وعلى كل التمظهرات السيميائية لجماعة ما أو طابع اجتماعي وثقافي ما. التناسق والتوافق هما الخاصيتان الأساسيتان لأشكال الحياة: تناسق " أفقي" يوطّد استمرار هذه الأشكال، وتوافق "عمودي" بين القيم والأنماط و الأدوار والميزات المحسوسة و المنظومات الزمانية والأهواء. بهذا المعنى، إن الوسائط الإعلامية أكثر ملاءمة، بشكل خاص، لتعرض أشكالا جديدة للحياة، ولكن أيضا لتدمّرها سريعا.

عموما، إن مستويات التحليل منتظمة بشكل تراتبي، وفق درجة التعقيد التي تطغى على مستوى التعبير، لكن من شأن كل مستوى أن يستقبل و يعيد تشكيل عناصر المستويات الأخرى، وذلك بإضافة عناصره الخاصة: مثال ذلك، في وسع أية ممارسة سيميائية أن تستقبل وتعيد تشكيل مجموع العلامات والنصوص والموضوعات لتجعل منها عناصر ووسائل لمسار تحقيق الفعل. وبالعكس، بإمكان أن تتحول ممارسة ما إلى نص، أو يتم إدماجها في نص في شكل خطاب توجيهي، أو دليل استعمال، أو دفتر الشروط.

إن إمكانيات الإدماج (بالمعنى التصاعدي أو التنازلي) من شأنها أن تنتج أشكالا سيميائية مختلطة، دون أن يعني ذلك أنها غير متجانسة و غير متناسقة، نظرا لأن مستوى الاستقبال يفرض خصائصه وإكراهاته. وعليه، هناك من مواضيع التحليل ما ليس محض نصوص أو موضوعات أو ممارسات، وهي لا تقع، حصرا، في مستوى تحليل وحيد. ونستنتج من ذلك أن الوسائط الإعلامية تندرج في الأشكال المختلطة، بالنظر إلى وجودها في كل مستويات تحليل الإنتاجات السيميائية .

إذا تناولنا مثال التلفزيون بوصفه وسيطا إعلاميا، ألفيناه يضم، بالأساس، نصوص- فيديو، مجتمعة في شكل برامج وسلسلة من الحصص، مرتكزة على حامل تقني (قناة بث)، تردفه ممارسات الاستعمال (مختلف أشكال العروض والاستهلاك التلفزيوني). إن معرفة الممارسات و الاستعمالات ضرورة لفهم كيف تمت تهيئة الحامل: فانطلاقا من هذه الممارسات والاستعمالات، تتحدد شبكة القناة التلفزيونية ونوع ومكانة كل حصة، ولكن أيضا تلك المتعلقة بالإشهارات وتسلسلها: في هذا المستوى من التحليل، نحن بصدد التعامل مع الاستراتيجية. باختصار، ما ندعوه بـ"الشبكة" ما هو سوى نتاج تلك الاستراتيجية، أي تلك الطريقة التي من خلالها يتشكل الحامل المادي ليكون مهيئا لمراقبة ممارسات الاستعمال. بهذا المعنى، إن الشبكة تلعب الدور ذاته الذي تقوم به الصفحة الأولى من الصحيفة. (ينظر أعلى(

يعدّ الوسيط بالمعنى الضيق، وسيلة وساطة وبث؛ لكن هذا التحديد لا يصمد طويلا أمام التحليل، إذا تعلق الأمر بحامل مهيئ، من جهة، لاستقبال النصوص الإعلامية، من جهة أخرى، للتأثير على الممارسات، فإن هذا الحامل يتحول بذلك إلى "موضوع" سيميائي معقد، يشترك بقوة مع أغلب مستويات التحليل الأخرى: فهو يحدد في الآن ذاته، أنواع وأنماط النصوص التي في وسعه استقبالها وأنواع وأنماط الممارسات التي يتماشى معها. فالوسيط هو حقا الرسالة، لكن ليس بالمعنى نفسه الذي طرحه ماك لوهان **Mac Luhan:** فالوسيط هو ذلك الموضوع- الحامل بالغ التنظيم والملزم، الذي ينتقي الأشكال السيميائية الأخرى، على غرار نصوص الفيديو، والممارسات، والاستراتيجيات، وأشكال الحياة.

في حال الوسائط الإعلامية، ولاعتبارات مؤسسية وأخرى اقتصادية، يتسع نطاق هذه السلطة المنظِّمة أكثر فأكثر؛ فالتلفزيون بوصفه وسيطا إعلاميا، مهيكل وفق "قنوات"، كما هي الصحافة المكتوبة مهيكلة حسب "عناوين صحفية"، وجرائد ومجلات، فضلا عن "المجمعات الصحفية". فالقناة هي علامة، أي

هي تلك الهوية التجارية التي، من جهة، تمتلك وضعية قانونية وتجارية، من جهة أخرى، يقوم تصميمها على تحديد أنماط وأنواع من التلفظ يمكن تطبيقها على مجمل البرامج والحصص ونصوص الفيديو.

وفي هذا الصدد، تحيل القناة التلفزيونية على أ–علامات نمطية (حروف شعار العلامة، شعار العلامة)، ب– الهوية البصرية (التي تنظم البعد التشكيلي للنصية البصرية)، ج– تصور معين للبرامج الأكثر أهمية (في أوقات الذروة) ولـ"لحصص الأكثر مشاهدة"، وبالتالي على الممارسات الاعتيادية المتوقعة من المتفرجين. إضافة إلى أنها تتبنى استراتيجيات متعلقة بممارسات مستعملي هذه القناة و ممارسات منافسيها.

يتمثل رهان هذه الخيارات المتعلقة بالهندسة السيميائية للفضاء الحيوي السيميائي، في توفير هوية ونمط سيميائي يمكن من خلالهما التعرف على القناة. ومن أجل ذلك، ينبغي أن تنتج هذه الانعطافات وهذه الخيارات أثرا تناسقيا. لقد ألمحنا سابقا إلى أن هذا النوع من التناسق "العمودي" (التوافق) هو خاصية يتميز بها مجموع هذه الدوال التي ندعوها "أشكال الحياة". هكذا في وسع أية قناة تلفزيونية أن تقترح، إجمالا، شكلا أو مجموعة أشكال الحياة. وبذلك تكون القناة قد تحددت هويتها بقوة الرابط الذي يجمع كل الخيارات المعلنة، و أيضا بالتوافق الذي تضمنه القناة بين كل مستويات التحليل، وبين كل أنواع المحتويات. كلما كان التوافق قويا، كلما تيسر التعرف على هوية القناة، وكلما فرضت هذه الهوية شرعيتها على المشاهدين. باختصار، إن توافق شكل الحياة، محمولا على وسيط إعلامي، وإن لم يضمن إيمان المتفرج به، فلا أقل من أن يضمن انخراطه ووفاءه .

إذن، يعدّ الوسيط الإعلامي نمطا سيميائيا متسما بإمكانية إرساء الروابط بين الثقافات، ويتم ذلك على مرحلتين؛ المرحلة الأولى هي مرحلة تشكل الحامل بوصفه تشكيلة استقبال للنصوص الإعلامية، من جهة، وللممارسات الاعتيادية، من جهة أخرى؛ و المرحلة الثانية هي مرحلة إضفاء الصفة المؤسسية على القناة بوصفها علامة يمتد تأثيرها السيميائي من العلامات وإلى غاية أشكال الحياة. طبعا، ليس الوسيط الإعلامي وحده من يملك القدرة على إدماج كل هذه الأبعاد السيميائية، فضلا عن أنه حديث عهد بهذا الدور. على نحو ما، ومن وجهة نظر سيميائية، يحوز هذا الوسيط الإعلامي على قدرة الهيكلة والإدماج في نطاق الفضاءات الحيوية السيميائية، كتلك التي يتميز بها العمران والسياسة والهندسة المعمارية .

على سبيل المثال، أبان يوري لوتمان بجدارة عن السبب والكيفية التي بها كانت مدينة سانت بيترسبورغ تمظهرا لشكل الحياة، موعزا ذلك إلى هندستها المعمارية وتصميمها العمراني، وقد انطوت على معنى التاريخ والزمن، ومعنى السياسة والفضاءات الاجتماعية، ومعنى سيادة بطرس الأكبر **Pierre le Grand** ودوره في مجتمع عصره. بشكل ما نجد أن الجهاز السيميائي المبثوث في الهندسة المعمارية

والعمران هو ذاته في الوسيط الإعلامي: فالأمر يتعلق بنصوص وموضوعات (الذاكرة التاريخية، العمارات) يتوجب موقعتها على موضوع- حامل (التنظيم العمراني) تمتد سلطته المهيكِلة إلى غاية العلامات، وفي الوقت نفسه، يتسع ليشمل الاستراتيجيات السياسية و أشكال الحياة. ولذلك لم تعد الوسائط الإعلامية تحتكر سلطة الإدماج السيميائي، إلا أن أوجه المقارنة (تنظيم المدينة، الخطاب السياسي المهيمن، الخ) هي ما سيحدد الحجم الحقيقي لمدى سلطتها. الآن يتعين علينا أن نعرف دور الوسائط الإعلامية، على وجه التحديد، في بلورة هذه السلطة.

3. منظومات الاعتقاد، الأهواء وأشكال الحياة

1.3. لكل نمط سيميائي منظومة اعتقاده

إن كل مستوى من مستويات التحليل التي أشرنا إليها يقتضي طرائق خاصة للتعبير، ولكن أيضا للتأويل، ويتناسب مع مجال تجريبي متميز (جسدي، وحسي، وإدراكي). كما أن طرائق التأويل ترتبط أساسا بالمنوال الذي يعزز عبره كل نمط سيميائي العلاقة القائمة بين عالم المعنى وطريقة التعبير التي يقترحها هذا العالم والخبرة الحسية والإدراكية التي يقوم عليها.

فيما يتعلق بالموضوعات، على سبيل المثال، فإن الخبرة التي يحيل عليها نمطها التعبيري ذو الأبعاد الثلاثة، والخصائص الثلاث (المادة، والمورفولوجيا، والحركية) هي ذاتها تجربة الأجساد، أية أجساد طبيعية، وكذا الأجساد الحية. وتحديدا، تقوم هذه الخبرة الحسية والإدراكية على كل التفاعلات بين جسدنا الخاص والأجساد الأخرى. إنها مجموع التفاعلات بين المورفولوجيات والبنى المادية والأنماط الحركية. وعليه، فإن هذه الخبرة تترك بصمات وذكريات، وتوفر خبرات تدريبية، ومن ثم يمكن تحيينها أثناء تأويل موضوع جديد.

على سبيل المثال، إن التساؤل عن أرغونوميا عتاد جديد، يعني السعي إلى تأويل شكله بالرجوع إلى ذاكرة التفاعلات السابقة مع تجهيزات مماثلة، ولكن أيضا، وعلى نحو استباقي، إلى نوع التفاعل الذي يمكن أن يجمعنا بهذا العتاد. إن التساؤل عن تصميم جهاز ما، يعني السعي إلى العثور في مورفولوجيا هذا الجهاز عن أشكال تجربة مرتبطة بالاستعمال و بوظائف أجهزة أخرى مماثلة. إجمالا، تترسخ أية منظومة اعتقاد في زخم المواجهة بين ما يعرضه الموضوع الجديد للتأويل والخبرات المتراكمة في الذاكرة؛ وتمتلك منظومة الاعتقاد هاته صفة الوعد (يضطلع به شكل الحياة) و صفة قبول الوعد (الناتج عن مجابهة آثار الخبرة). في قلب هذه الخبرة المقبولة نسبيا، هناك حوار بين جسدين، جسد المؤوِّل والجسد- الموضوع المقترح .

لقد اقترحنا، سلفا، في هذا المقام، تنويع منظومات الاعتقاد وفق صعيد المحايثة: معتقدات سيميولوجية (علامات)، ومعتقدات تمثلية- تخييلية، ومعتقدات وظيفية (الأشياء)، ومعتقدات ممارساتية (ممارسات)، ومعتقدات تمس الانتماء للهوية (أشكال الحياة .(

وعلى المنوال ذاته، ولكن على نطاق أوسع، تنطوي آليات الإقناع والتأويل الخاصة بالوسائط الإعلامية على مواجهة بين وعود و خبرات. على أن الفارق يكمن، مثلما رأينا، في امتداد مدى التأثير السيميائي للوسائط الإعلامية حتى يشمل مجموع مستويات الفضاء السيميائي الحيوي. وحينئذ يبرز المشكل الثقافي المركزي المتمثل في مدى توافق تلك الوعود أم تناقضها مع الخبرات

2.3. تقاطع و تهجين وتضارب منظومات الاعتقاد

إذا كان كل مستوى من مستويات التحليل يقترح وعوده الخاصة، فإن مجموع مستويات التحليل الخاضعة للوسيط الإعلامي هو الآخر يعرض وعدا شاملا. إن الخاصية الأكثر لفتا للنظر في الوسائط الإعلامية المعاصرة، تتجلى في صعوبة ضمان التوافق بيت مختلف أنواع الوعود السيميائية، خصوصا في الوسائط الإعلامية الأكثر انتشارا والمعولَمة، التلفزيون وأنترنت.

إذا ما اقتصرنا، مثلا، على مستوى تحليل النصوص اللسانية والإيقونية أو أشرطة الفيديو، نجدها تحوي في ذاتها وعودا سيميائية، في بعض الأحيان، تكون في شكل عقود قراءة تحدد مسبقا الطريقة التي من خلالها يفترض أن يؤولها المتلقي. في الثقافات المؤسسية، تتحول هذه الوعود إلى معايير وجماليات وأجناس: الرواية البوليسية، ومسرح الشارع، والحصص الثقافية، والفيلم الوثائقي عن السفر، و حصص الألعاب، الخ، هي أجناس تحتوي على تعليمات القراءة، مدرجة في شكل النصوص، ويمكن استثمارها وفق الأسنان الخاصة بكل فضاء ثقافي .

من جهة النص، نجد أن كل نوع يتناسب ومجموعة من القواعد والمؤشرات التي تتيح معرفة أية منظومة اعتقاد مقترحة، أما من جهة ممارسة التأويل، فإن كل نوع يتناسب ونمط المخيال والاستعداد الداخلي الكفيل بقبول الوعد وتبني منظومة الاعتقاد. وعليه، فإن القول بالولوج إلى عمل إبداعي تخييلي، يقتضي تعليق الإنكار الذي قد توحيه المواجهة بين عالم العمل الإبداعي وعالم الخبرة اليومية، والقبول مؤقتا، بنمط جديد من الاعتقاد (تخييلي)

في خضم الأجناس المستغلة من طرف الوسائط الإعلامية، خاصة التلفزيون والأنترنت، في وسعنا تجميع الوعود السيميائية في أربعة أصناف كبيرة (مستوحين ذلك من أعمال فرانسوا جوست François Jost)، وإذن إلى أربع منظومات اعتقاد شديدة التباين. أربعة فقط: أ- الوثيقة والمعلومة، ب- اللعب والمنافسة، ج- التخييل والسرد، د- التعليم والتدريس (الذي يسمح بتطوير المكانة الإعلامية بالموازاة مع

نشر وتعميم الدروس عن بعد).كل من هذه المنظومات الاعتقادية تتحدد من خلال علاقة الحقيقة التي تقيمها مع عالم الخبرة اليومية، وإن علاقة الحقيقة هذه يمكن أن تكون موضع إقرار صدقها أو زيفها: على سبيل المثال، من شأن كل من الفيلم الوثائقي، والتعليم، واللعب، أن يتمكن من التأثير على الخبرة اليومية، كل بطريقته، بينما ليس الأمر كذلك بالنسبة للخيال .

علاوة على ذلك، إن كلا من هذه المنظومات الاعتقادية الأربعة تقيم علاقات زمكانية متميزة مع الخبرة اليومية (في وسع كل من هذه المنظومات أن تنفصل كليا عن هذه الخبرة أو تتجذر فيها بقوة، وذلك بفضل عمليات الاندماج واللاندماج): نعلم على سبيل المثال أن التخييل يطرح نفسه منفصلا عن زمن ومكان القراءة، وأن ذلك يترجم، في الكتابات التخييلية، باستعمال خاص لأزمنة الفعل النحوي. من ناحية أخرى، تتناسب كل من هذه المنظومات الاعتقادية ونمط من القيم، ولعبة تقمص الأدوار، وقواعد خاصة للتصديق عليها؛ فيما يتعلق بالفيلم الوثائقي: فالمعلومة جديدة ومثبتة، وبالنسبة للعب، فالربح مبرر وخاضع للقواعد المعلن عنها، أما التخييل، فالاهتمام به و احتمال تقاطعه بالواقع مستمر إلى النهاية، وفيما يتعلق بالتعليم، فإن قيمة المعارف مصادق عليها من قِبَل قناة توفر ضمانات مؤسسية واجتماعية.

ولذلك، يلج مستعمل الوسائط الإعلامية إلى النصوص الإعلامية، مزودا بهذه التعليمات وهذه الوعود التي يحددها الجنس الذي إليه تنتمي. وما الذي يكتشف اليوم؟ حصص لعب وقد تحولت إلى أفلام وثائقية عن السفر؛ قصص مغامرات غرائبية هي في الأصل ألعاب ومنافسات ؛ مقاطع من الحياة اليومية تبدو، هي أيضا، قد تم تصميمها كحصص لعب، بيد أن المتفرج سرعان ما يدرك أن هذه المقاطع هي محض قصص تخييلية؛ أفلام وثائقية تستعير أسنانها من أجناس تخييلية صرفة، الخ. إن المنعطف الأكثر شهرة في هذا التطور الثقافي يتمثل في ظهور وانتشار تلفزيون الواقع بكل أشكاله، الذي يفرض منظومة اعتقاده الخاصة به (التخييل والسرد الوارد في شكل سيناريو) تحت عباءة منظومة أخرى (اللعب والمنافسة)، على وضعيات تسعى لأن تقدم نفسها على أنها أفلام وثائقية ويوميات اعتيادية.

لكن هذا الاتجاه اتسع نطاقه، بحيث قد ننتقل من قناة إلى أخرى، فنكتشف مشهد تعقب سيارات، من الوهلة الأولى، يصعب علينا معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بمشهد فيلم بوليسي (تخييل وسرد)، أم بفيلم وثائقي عن عمل الشرطة (وثيقة ومعلومة) أم بسباق السيارات (لعب و منافسة). كذلك، قد ينتمي مشهد مجموعة من الممثلين يقطعون نهرا مضطربا، إلى فيلم مغامرات (تخييل)، أو إلى حصة رياضات خطرة وعنيفة (لعب)، أم إلى إشهار سياحي نحو وجهة معينة (وثيقة ومعلومة). طبعا، إن هذا الاتجاه يزداد تفاقما إلى درجة أن الحامل الإعلامي أضحى متأقلما مع ممارسة مشتتة تدعى زابينغ بالنسبة للتلفزيون، وتصفح بالنسبة للأنترنت.

بناء على ذلك، يتعين علينا أن نفهم أن الوسيط الإعلامي، بصفته هذه، هو حامل لمنظومة اعتقاد شاملة، ولأشكال الحياة المهيمنة التي تتداخل مع الأشكال المرتبطة بالأجناس النصية نفسها، والمثبتة في كل ثقافة محددة. وبهذا يتحول كل من اللعب، و الفيلم الوثائقي، والتخييل، والتعليم، بمعنى من المعاني، إلى ميتا- منظومات اعتقاد تتقاطع فيما بينها، على خلاف منظومات الأجناس النصية، التي تفرز أشكالا هجينة وتوليفات على نطاق واسع، علاوة على الالتباس المتنامي الذي يعتري المتفرج أثناء التأويل .

إذن، المشكلة لم تعد تتعلق بمعرفة ما إذا كانت حصص الأخبار تقول الحقيقة عن العالم [أم لا]، أو إذا كانت الألعاب مزيفة أم موثوقا بها، أو إذا كانت الإشهارات متطابقة مع الأخلاقيات التجارية، أو إذا كانت أفلام التخييل تحترم الأسنان الجمالية للجنس [الذي منه انبثقت]. أصلا، المشكلة تطرح نفسها مسبقا على المشاهد، لأن أول ما يتعرض للزعزعة والإخلال، إنما هي شروط اختيار منظومة الاعتقاد الأكثر ملاءمة. إذا كنا، مثلا، إزاء فيلم إشهاري، وفرض علينا ذلك، مقدما، تساؤلا حول ما إذا كان الأمر يتعلق بلعبة، أم بفيلم وثائقي، أم بفيلم تخييلي، فمن اليسير إدراك أن شروط تأويل الرسالة الإشهارية قد تدهورت بشدة، وإن هذا التدهور لن يكون إلا في صالح تطويع المعتقدات، أي في صالح استراتيجية إقناع تلعب على وتر الزعزعة السيميائية للمؤول [المشاهد].

3.3. من أجل أخلاقيات منظومات الاعتقاد

استنادا إلى ما سبق، لم يعد كافيا اعتماد حكم قائم على الحس السليم، بخصوص الوسائط الإعلامية. فالتخوف من تأثير الوسائط الإعلامية على الآداب العامة، والتنديد بسلطتها الواسعة، والرغبة في التحكم في انتشار التمثلات النمطية التي تنقلها، كل هذا حقيقة أمر جدير بالثناء، وبلا شك لا مناص منه، مثلما هو شأن كل تحذير يقف في مواجهة قدرة فائقة على التطويع والإيعاز. في مواجهة هذه السلطة الواسعة، يقترح علماء البيداغوجيا وعلماء الاجتماع، عموما، حلين تربويين: يتعين، منذ المدرسة، تعلم الأسنان، والتعرف على الأجناس، وتبني منظومة القراءة الأكثر تكيفا مع كل وسيط إعلامي، ومع كل جنس. قصارى القول، هو حل يقوم على سيطرة إحدى منظومات الاعتقاد، ذات الطبيعة التعليمية، التي تهيمن على بقية المنظومات.

ولكننا نرى أن جوهر القضية يتمثل في أن تهجين منظومات الاعتقاد الإعلامية المعاصرة يقتضي ابتكار استراتيجيات مضادة، وأخلاقيات إعلامية مناسبة لعصرنا. حقيقة، إن المشكلة ليست جديدة، وإنما تغيرت طبيعتها. في الواقع، اعتمادا على هذه الإشكالية، نسج فلوبير Flaubert ، عام 1857، روايته مدام بوفاري، التي من عنوانها استمدت الشخصية اسمها؛ لقد انزلقت شخصية مدام بوفاري نحو الانحلال والانتحار، فقط لأنها اعتقدت أنه بإمكان الإنسان أن يحي في التجربة اليومية، مثلما يحيا في التخييل

الروائي الذي كانت تتغذى منه باستفاضة وغزارة. إذن لم يعد الالتباس بين منظومات الاعتقاد مقصورا على الوسائط الإعلامية المعاصرة.

لكن الفرق بينهما من البداهة بحيث إذا تتبعنا تحليلنا أدركنا أن المؤسسة الروائية، في حالة مدام بوفاري ومثيلاتها، السابقات أو اللاحقات، ليست في موضع الاتهام، وتفسير هذا الالتباس يمكن في المؤول الذي يحتمل الهشاشة والعجز في كفاءته السيميائية: فمدام بوفاري لم تكن ضحية الالتباس بين منظومات الاعتقاد، وإنما ضللها اختيارها لمنظومة الاعتقاد، لا سيما حين تلقت محتوى الوعد التخييلي (الروائي) على أنه قابل لتحويله وتطبيقه في خبرتها المعرفية والحسية .

وبشكل أعم، الآن وأكثر من أي وقت مضى، فمجموعات الضغط، التي تحتج ضد صورة المرأة التي تبثها الوسائط الإعلامية، أو ضد الآداب والأعراف التي تعرضها هذه الوسائط، أو ضد كل أنواع الفساد الأيديولوجي والأخلاقي المنسوب إلى مؤلفيه، إنما تمارس الخلط نفسه، وتنخدع بالطريقة ذاتها: فالكل يجهل (عن قصد أم عن غير قصد) الاختلاف الفعلي والدلالي بين منظومات الاعتقاد، فالكل يتصرف وكأن المشاهدين المؤولين إما عاجزون عن التعرف على الأجناس ومنظورات الاعتقاد، وإما غير قابلين لاستيعاب مثل هذا الأمر.

إن الطرق التي ينتهجها ما يدعى بالإشهار المخالف للقانون ينتمي هو أيضا إلى البراديغم نفسه المتعلق بالالتباس "المَرَضي" أو "المنتهك" [لمنظومات الاعتقاد]: فمن أجل الدعاية لمؤسسة أو تقديم خدمة، حتما، سيستند تحقيق تلفزي ملتوٍ على الالتباس في منظومات الاعتقاد، وخاصة في طرق الإقناع، لكن يظل ذلك داخل المنظومة ذاتها، أي منظومة "الفيلم الوثائقي– المعلومة"، وانطلاقا من القراءة النقدية للنص ذاته، يمكننا التعرف على الوسيلة الإشهارية.

والطريقة الأكثر دهاء هي استعراض منتجات وعلامات تجارية في خضم تخييلات روائية أو سينمائية؛ قد نصاب بالصدمة لذلك (إلا أن الأمر مقنن)، ومع ذلك فحضور منتوج ما أو علامة تجارية نابعة من التجربة اليومية، من وجهة نظر سيميائية، ليس أكثر غرابة من أي شكل من أشكال "الدعامات" الواقعية: الحقيقة أن ذلك إجراء قديم قدم التخييل، ويتمثل في إدراج أحداث وأشياء اختبرناها بشكل مباشر أو يمكن أن نشهد على وجودها. هنا لاوجود لتغيير لمنظومة الاعتقاد، وإنما هي شكل من أشكال "التنويه" الداخلي، إجراء بلاغي مشفر، من المفروض ألا ينخدع به أحد، من شأنه أن يوفر مصداقية للعالم التخييلي. فالمصداقية ليست الواقع، لكنها أثر من مرجعية مباشرة تحاكي الواقع .

في حالة الوسائط الإعلامية المعاصرة، فالأمر مختلف، لأن المؤسسة الإعلامية هي ذاتها من يمارس التهجين المفضي إلى التباس منظومات الاعتقاد؛ والمؤول [المشاهد] هو أبعد من أن يكون هشا، عاجزا أو مذهولا. في حالة تلفزيون الواقع، على سبيل المثال، إن السلوكات التي تعرض على أنها يومية

ووثائقية هي وقائع من نسج الخيال، تقوم على سيناريوهات أو على حبكات نصية، وقد اضطلعت بها شخصيات مختارة على غرار الممثلين في أفلام التخييل. فضلا عن ذلك، فإن قواعد الإقصاء التدريجي للمشاركين، التي يفترض أنها تحيل على عالم اللعب والمنافسة، هي أيضا جزء من الحبكة النصية، مثلما هو شأن الخيارات السردية والنصية المقترحة في نصوص تفاعلية تستثمر قواعد بيانات رقمية. صفوة القول هي أن حصص تلفزيون الواقع تستعيركل عدّتها [المفهومية] من منظومة التخييل، بينما توحي مظاهرها بانتمائها إلى جنس الفيلم الوثائقي أو جنس الألعاب.

4.3. أخلاقيات أم استراتيجية؟

ليس من مهمة السيميائي أن يحدد معيارا سلوكيا أو يدعو إلى قواعد أخلاقية. وإنما من شأنه أن يلاحظ ويفهم ويحدد "المناطق الحرجة"، والمواقع الإشكالية و نقاط التدخل التي من شأنها أن تقودنا إلى معالجة للقضايا. وفي هذا الصدد، فإن المنطقة الحساسة هي تهجين منظومات الاعتقاد. أما عن الموقع الإشكالي، فهو محدد بوجود منظومات اعتقاد خاصة بالوسائل الإعلامية المعولمة، مستقلة عن منظومات الاعتقاد التي تقترحها الأجناس النصية التقليدية في كل ثقافة .

أما نقطة التدخل فهي على الأرجح توافق أشكال الحياة: إذ في إطار هذا المسار، هناك أزمة يمر بها التوافق القائم بين مستويات التحليل ومختلف الأنماط السيميائية الخاصة بكل ثقافة، الذي عرّفناه بوصفه خاصا بأشكال الحياة. إن وجود شكل من أشكال الحياة يمكن التعرف عليه، هو في الحقيقة، شرط لمستعمل الوسائط الإعلامية حتى يتحمل مسؤولية انخراطه فيها أو يبقى بمنأى عنها، حتى يقبل أو يرفض القيم والوضعيات والأدوار المقترحة عليه، وذلك على بيّنة من أمره. إلا أن التهجين الممنهج الذي نلاحظه لا يمكنه إلا أن يحرمه من أن يتحمل مسؤولية خياراته. باختصار، إن تهجبن منظومات الاعتقاد يقوض التوافق الخاص بأشكال الحياة، وبالتالي إمكانية تمظهر أشكال للحياة يمكن التعرف عليها و تبنّيها.

بالإشارة إلى أن توافق شكل الحياة هو مفتاح الهوية بالنسبة لعلامة تجارية، أو قناة تلفزيونية، أو موقع إلكتروني، ستتحول نقطة التدخل، بالنسبة إلى الوسيط نفسه، إلى قضية استراتيجية. وعليه، فالالتباس الممنهج بين منظومات الاعتقاد يجعل من العسير قراءة الشبكة البرمجية لقناة تلفزيونية معينة، بما أنه يخلُّ بتعرف المشاهد على الأجناس النصية وعلى أنواع البرامج الموزعة بدقة على مدى يوم وأسبوع، وفق شبكة من المفترض أن يكون هذا المشاهد هو من يتلقاها بكفاءة.

بلا ريب، هذه الأيام، لم يعد هذا التهجين الملتبس غريبا عن الغموض المطرد الذي ينتاب هوية علامات تجارية وقنوات تلفزية وعناوين صحف ومجلات، على الأقل فيما يتعلق بالوسائط الإعلامية العامة. من غير هوية بارزة، لا يمكن لعلامة تجارية أن تعبّر عن منتوجها بشكل قانوني، أو ببساطة، لا

يمكنها أن تتخذ موقفا إشهاريا واضحا. وبالعودة إلى النقطة السابقة: من دون مُشهِر يمكن التعرف عليه، فإن المتلقي لا يدري أي موقف يتخذ؛ إنّ الأنا تؤسس لـ الأنت، والعكس صحيح، وإن اختل أحدهما، فإن نسق التلفظ سيهتز .

في غياب استقصاءات منتظمة ومعمقة على مدى فترة طويلة، ليس من اليسير أن نقرر إن كانت الظاهرة الملاحظة هي موضة دائمة أم محض نزعة عارضة. في هذه المنطقة الهامشية من الفضاءات السيميائية الحيوية حيث تتفاعل الانتقالات والترجمات، في وسعنا أن نتصور منظومات الاعتقاد وقد شرعت في هجر مستوى تحليل الأجناس النصية، لترسو على مستوى تحليل أشكال الحياة الأوسع نطاقا.

هذه الفرضية ليست عبثية، لأنه من بعض النواحي، لطالما شكّلت الوسائط والممارسات والأعراف الاجتماعية مصدرا للأجناس النصية، وما كان لهذه الأخيرة لتظهر بخصائص نصية، أو خصائص "نوعية" إلا على إثر قولبتها في الدراسات الأدبية المؤسسية. إن كان الأمر كذلك، فإننا نشهد اليوم طورا ملتبسا حيث تتداخل قواعد منتمية للمنظومة القديمة وأخرى خاصة بالمنظومة الجديدة. إن هذه المنظومة الجديدة يمكن أن تكون منظومة أشكال الحياة المعولَمة بعدد محدود جدا

4. 3- في نهاية المطاف: هذه المعتقدات التي نلج عبرها العالم

سواء أتعلق الأمر بموضة دائمة أم بنزعة عارضة، فإن هذا الالتباس، الذي أحدثه التهجين، ينطوي على الخطر ذاته بالنسبة لمعاصرينا: إنه من الخطر أن يُفرَض علينا أو أن نفرض على أنفسنا منظومة اعتقاد وحيدة، وذلك توخيا للوضوح والتبسيط أو إعادة الطمأنينة. لقد وجد أورويل Orwell اسما لهذا الاختزال الشمولي: إنه الأخ الأكبر؛ في الواقع يعدّ الأخ الأكبر الوسيط الذي يستجيب لكل الشروط التي يستلزمها تعريف الوسيط، بما في ذلك قدرته على الاحتضان والتأثير في كل الأنماط السيميائية لثقافة ما. لكن زمننا هذا ينتج أنماطا أخرى مماثلة، وإن لم تكن في مصاف الوسائط الإعلامية، إلا أنها هي كذلك حاملة لمنظومة اعتقاد وحيدة، ولشكل حياة شمولي: ولنأخذ الاقتصاد المالي كمثال راهن، حيث يعدّ أحدى "الأصوليات" السيميائية التي فُرِضت علينا (أو التي فرضناها على أنفسنا) بوصفها تفسيرا نهائيا لكل شيء، كما أنه بمثابة مصفاتنا الحقيقية في علاقتنا بالعالم.

باسم الفكر المركب، ظل إدغار موران Edgard Morin يدافع عن تعدد وجهات النظر، ويدين التأويلات أحادية الجانب، وغالبا ما استفز الرأي العام، مقترحا "تأويلات متعددة الجوانب" ومتناقضة، كما هو شأن الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، أو الأزمة المالية، أو كفاءة الخبراء الذي يقدمون استشارة للسياسيين الذين يحكموننا. لقد اكتسى نضاله الفكري دوما بعدا إعلاميا، لما تلقاه وجهات النظر أحادية الجانب من ترويج ودعم خصوصا من الوسائط الإعلامية. لم يكن الفكر المركب يوما فكرا "شموليا"؛ فهو دوما فكر متباين يتغذى على كل وجهات النظر حول العالم. تخضع فقط لـ (ميتا ضبط)، أي لما يدعوه إدغار موران،

بشيء من الإبهام، "معرفة المعرفة" والتي تفضي، بحكم الواقع والقانون، إلى أخلاقيات المعرفة، أكثر منها إلى نظرية المعرفة.

ليس في وسع السيميائي، من جانبه، إلا الدفاع عن تنوع منظومات الاعتقاد، على الرغم من أنه تنوع متباين بما فيه الكفاية. ليس هناك سوى أربع منظومات في الوسائط الإعلامية المعاصرة، هي أقل مما ينبغي. والأسوأ من هذا أن يحدث تداخل فيما بينها، بسبب من التهجين. في حين، من المستحسن أن يكون هناك تنوع في منظومات الاعتقاد و في الآن نفسه، تمييز جليّ بين كل واحدة منها، مثلما يمكننا أن نناضل من أجل التنوع البيولوجي وتحديد هوية كل فصيلة على حدة.

إن تنوع منظومات الاعتقاد هو ضمان الاكتمال السيميائي في علاقتنا بالعالم. فوجودنا في هذا العالم مرهون باعتقادنا فيما يقدمه لنا، وبما يحمله من دلالة ذواتنا. وعلى الرغم من أن العالم يبدو لنا موحدا، إلا أنه في غاية التنوع، فنحن بحاجة إلى تنوع منظومات الاعتقاد، وإلى تكيفها مع كل وضعية حاملة للمعنى، حتى نستشعر وحدة علاقتنا بالعالم. من الناحية السيميائية، وانطلاقا من "الإيمان الإدراكي" الذي يجعلنا نعدّ إدراكاتنا اليومية حقائق، إلى غاية الإيمان الديني الذي يتيح، في كنف التجربة اليومية، إمكانية عوالم أخرى، مرورا بالاعتقاد التخييلي و الثقة في قواعد التنافس، لسنا في نهاية المطاف سوى معتقدات تتميز بالتنوع والخصوصية .

إذا كان لزاما تقديم توصية سيميائية خالصة، ستكون كالتالي: علينا أن نحافظ، و نطوّر، و ننشّط تنوع منظوماتنا الاعتقادية الثقافية. وهذا بالذات هو الشرط لكي تكون أشكال الحياة التي تحتملها منظومات الاعتقاد قابلة للإدراك على أنها أشكال الحياة. من وجهة نظر سيميائية، ومثلما أكدنا على ذلك بما يكفي، ليس لشكل الحياة وجود إلا في خضم التناقض، على الأقل ذلك التناقض الذي يتجلى في صورة بارزة ومختلفة على خلفية إجماع؛ إن أشكال الحياة لا تنتظم علاقتنا بالعالم إلا من خلال قدرتها على التعارض و التحول، وبفضل تباينها المميز الذي يحفزنا على التماس خياراتنا.

صفوة القول، لا يمكننا أن نضطلع بأشكال الحياة إلا في خضم التنوع، و ليس في وسعنا أن نسند إليها دلالة إلا من خلال التباين. لا معنى لحياتنا إلا عبر التناقض، وإمكانية الاختيار. ولا يمكن للوسائط الإعلامية أن تسهم في ذلك إلا إذا أطلقت العنان لإمكانية التناقض والتباين .

5. قائمة المراجع

1. FONTANILLE Jacques, Pratiques Sémiotiques, PUF, Paris, 2008

2. JOST François, Comprendre la télévision, Paris, Armand Colin, 2005

3. LOTMAN Youri, La Sémiosphère, Traduction d'Anka Ledenko, Limoges, Pulim, 1999.

6. الإحالات والهوامش المرجعية:

1. هو مفهوم أساس في فلسفة ميرلو بونتي الذي يعدّ أننا في الوجود أجساد نطل من خلالها على العالم، فجسدي الخاص هو الذي أتحسس به العالم المحسوس الذي يوجد وحده بالنسبة لي كجسد.

2. التحاكي(Homothetie) هو عملية تحويل أو تضخيم أو تقليص الأشياء، وهومفهوم هندسي يعني عملية نقل رياضي لفضاء ما، بحيث ينقل كل خط إلى خط مواز. كل توسع يشكل زمرا في الفضاء الاقليدي أو الفضاء التآلفي. من أشهر الأمثلة للتوسع هي الانزلاق، الدوران النصفي والدالة المتطابقة. وهو يعني هنا التناظر بين العالم البشري والعالم الكوني.

3. مستوحاة من نظرية التوزيعية التي ، على اختلاف مدارسها، تستند إلى اعتبار اللغة مجموعة من الوحدات التمييزية التي تظهرها عملية التقطيع أو التقسيم، و يعتمد منهجها طريقة شكلية في الوصول إلى المكونات المباشرة (المركبات الأساسية) والنهائية (الوحدات الصرفية أو المورفيمات). و الغاية من التحليل التوزيعي هي إظهار البناء المتدرج للعبارة .

4. على شاكلة الألوان و الأصوات والحرارة والبرودة والروائح والنكهات..الخ.

5. تمييزا بين الزماني المتعلق بالحياة المادية، والأبدي المتعلق بالحياة الروحية. و منه قولهم السلطة الزمنية، و السلطة الروحية.

6. مارشال ماك لوهان (21 يوليو 1911 – 31 ديسمبر 1980) أستاذ وفيلسوف وكاتب كندي أحدثت نظرياته في وسائل الاتصال الجماهيري جدلاً كبيرًا، فهو يرى أن أجهزة الاتصال الإلكترونية . خاصة التلفاز . تُسيطر على حياة الشعوب وتؤثر على أفكارها ومؤسساتها.

7. الميثاق الخطي (دفتر المعايير الخطية)، وهو وثيقة عمل تحوي مجموع القواعد الأساسية لاستخدام العلامات الخطية المشكّلة للهوية الخطية لمنظمة أو مؤسسة أو مشروع ما.

8. بطرس الأكبر أو بيتر العظيم أو بيتر الأول أو بيوتر ألكسييفيتش رومانوف (9 يونيو 1672 – 8 فبراير 1725 وقيصر روسيا الخامس، ولد في الكرملين عام 1672. حكم روسيا من عام 1682 خلفا للقيصر فيودر الثالث حتى وفاته عام 1725.

9. الإرجونوميا هي ذلك المبحث العلمي الذي يهتم بتصميم الأدوات والمعدات في بيئة العمل بحيث تتلاءم مع طبيعة الإنسان وحاجياته.

10. فرانسوا جوست ماري رينوارد (18 سبتمبر 1761 – 27 أكتوبر 1836) كاتب مسرحي ولغوي فرنسي.

11. إن الإبستيمولوجيا في حاجة إلى إيجاد وجهة نظر تكون قادرة على النظر إلى معرفتنا الخاصة كموضوع للمعرفة، أي ميتا–زاوية نظر، كما هو الشأن في الحالة التي تتشكل فيها لغة واصفة من أجل تمثل اللغة التي أصبحت موضوعا» إدغار موران، الفكر و المستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 2004 ص473.

12. مفهوم يعود للفيلسوف الظاهراتي موريس ميرلو بونتيMaurice Merleau–Ponty ، الوارد في كتابه "المرئي واللا مرئي" ويعنى به أن العالم ليس إلا ما تدركه حواسنا.